

تاريخ المطابع من أول نشأتها

{ الحضرة الاصولي البارع علي أفندي أبو الفتوح }

(من وكلاء النائب العمومي)

الطبع لفظة عربية مشتقة من طبع يطبع طبعاً أي ختم وفي لسان العرب : « الطبع الختم وهو التأثير في الطين ونحوه والطابع (بفتح الباء وكسرهما) الختم ، وقال أبو اسحق النحوي « طبع وختم في اللغة واحد ،

ولما اخترعت الطرق الفنية لتكتابة الكتب كما سنشرحه بعد أطلقت لفظة الطبع على هذه الطرق لقربها من معناها الاصلى وقيل طبع الكتاب أي كتب بواسطة احدى طرق الطبع وسمي المحل الذي تطبع فيه الكتب مطبعة وقد كان لهذه الاختراعات شأن مهم ودور عظيم في ارتقاء بنى الانسان بواسطة كبرى الخدمة الافكار وانتشار العلوم والمعارف بين افراد الامم اذ قبل وجود المطابع كانت الكتب نادرة الوجود ولا يقبضها الا بعض الموسرين لما كانت تتكلفه من الاثمان الباهظة والاقوات الثمينة من اجرة نساخ وثمان ورق أو جلد وأجرة مجلد ونحو ذلك

أما اليوم فأصبح كل انسان يمكنه أن يحصل على الكتب التي يريد بها ببذل القليل من المال وأصبح الكتاب الذى كان ينتفع به العدد اليسير من الناس منتشرا بين ايدى الالوف ينتفعون به ويقتبسون من أنواره .

ولا حاجة للاطناب في هذا المعنى فجميع القراء يعلمون فوائد المطابع وثمرات اختراعها مما لا حاجة بهم الى تفصيله . ولكن أبى الله الآن يكون لكل شيء منافع ومضار والمطابع كغيرها من الاشياء منافعها كثيرة ومضارها ليست بالقليلة كما سنبينه في آخر هذا البحث . والتكلم الآن على

تاريخ هذه المطابع وكيف وجدت وما أدخل عليها من التحسينات من أول ظهورها الى وقتنا هذا مراعين في ذلك الاعتماد على أوثق المصادر وأصدق الروايات جانحين الى اجتناب التطويل الممل والايجاز الخجل فنقول :

الطبع اصطلاحاً هو كتابة حروف أو رسومات على الورق بواسطة الضغط والطبع بآلة مخصوصة. والمطابع ثلاث

أولاً - مطبعة الحروف والمراد منها كتابة الكتب وما أشبهها على الورق

ثانياً - مطبعة الخفر والمراد منها نقل الرسومات على الورق

ثالثاً - مطبعة الحجر وهي مشتركة بين الاثنين لانها تنقل الحروف

والرسوم

وهناك طريقة أخرى مشابهة للاخيرة للرسم على المنسوجات وهي التي

يعبر عنها بالبصمة وليست هي من موضوع بحثنا هذا

ومن الامور الثابتة هو ان مطبعة الخفر اخترعت قبل مطبعة الحروف

وكانت سلماً موصلاً لاختراعها

ومن الامور الثابتة أيضاً هو أن فن الطبع كان معلوماً عند القدماء

فالمصريون والاشوريون ثم بعدهم اليونان والرومان كانوا ينقشون الحروف

بارزة أو مجوفة ثم يطبعونها على البردي أو على الرق المتخذ من الجلود بواسطة

الضغط وبواسطة استعمال مادة رطبة ملونة أو بدون استعمال مادة وبواسطة

الضغط أيضاً على ألواح مصنوعة من الشمع

وقد أثبتت الابحاث العلمية التي حصلت على الاثارات الصينية أن

الصينيين منذ سنة ٩٢٣ بعد الميلاد (وربما صح القول بأنه منذ القرن الرابع

بعد الميلاد) كأواقدا اخترعوا فن نقش الحروف بارزة على قطع من الخشب ثم على قطع من المعدن وانهم كانوا يضعون فوق هذه الحروف البارزة مدادا لزجا ويطبعون كتبهم بهذه الطريقة على الورق. وهذه هي طريقة النقش على الخشب ومن المعلوم ان الورق المتخذ من القطن اخترعه الصينيون في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد

ولم تستعمل هذه الطريقة في أوروبا الا في القرن الرابع عشر ويؤكد كثير من المؤرخين أن هذه الطريقة استعملت في بادىء أمرها لطبع الكوتشينة المملومة عند جميع القراء وكان الاصل في هذا الورق أن ترسم وتلون كل واحدة منه على حدها باليد ويوجد بفرانسا جملة أوراق محفوظة لغاية اليوم من صنع الرسيم { چا كان جرنجونير } الذي كان أعدها لكارلس السادس ملك فرنسا في سنة ١٣٩٢ ميلادية ولا يخفى أن هذه الطريقة كانت تستدعى مصاريف كثيرة وتستغرق زمنا مديدا فافتكر بعضهم في أن يرسمها بواسطة قوالب مخرقة مثل التي تستعمل اليوم لطبع النمر والاعلانات الملوثة ثم ترقى في العمل فرسمت كل ورقة على لوحة من الخشب الصاب على هيئة بروز ثم وضع مداد لزوج على هذه البروز وطبعت الاوراق على هذه الصفة ثم استعملت هذه الطريقة لطبع الصور الدينية ثم نقش مع الصور بعض كلمات ثم نقشت ألواح كلها كلمات

ومن هذا يثبت أن طريقة الخمر على الخشب بعد أن اخترعت في بلاد الصين اخترعت مرة أخرى في بلاد أوروبا ولكن الصينيين لا يزالون يستعملون هذه الطريقة لغاية اليوم في طبع كتبهم مع استعمال الطرق الاخرى المستحدثة وذلك لموافقها وسهولتها بالنسبة لشكل حروفهم وأما الاوربيون فلهم

لا يستعملون هذه الطريقة الآن الا في طباع الرسومات وأما طباع الكتب
فلا يستعملون له مطبعة الحروف التي اخترعوها فيما بعد

والذي يجب ملاحظته هو ان الطبع في القرن الرابع عشر من الميلاد كان
يتم بدون استعمال المسكس والسبب في ذلك بسيط جداً وهو أن هذه الآلة
لم تكن اخترعت في ذلك العهد وإنما كانت توضع الورقة فوق البروز الموجودة
في اللوحة الخشبية بمد ان تغطى هذه البروز بالخبر ثم يضغط على الورقة
بواسطة اسطوانة من الخشب مغطاة بجوخ حتى ينطبع ما على الخشب في الورق
وبهذه الطريقة طبعت التوراة في سنة ١٤٢٠ م في مدينة باو برج من أعمال
باواريا بالمانيا وهذه هي التوراة التي دعواها بتوراة الفقراء وهي عبارة عن
ملخص الكتاب المقدس ويوجد منها بعض نسخ لغاية اليوم

وأغلب الكتب التي طبعت على هذا المنوال ظهرت في المانيا وهولاندا
وأكثرها اما كتب دينية عنوانها «مرآة السلام» (١) أو كتب مشتملة على
ملخصات من أجرومية المؤلف اللاتيني (اليوس دوناتيس) وموسومة من أجل
ذلك باسم «دونات»

وفي النصف الاول من القرن الخامس عشر ظهر اختراع مهم وهو
اختراع الحروف المنفصلة التي يمكن وضعها بجوار بعضها بحيث تتركب منها
الكلمات ثم الصحائف على حسب الاحتياج وضرورة الطبع بحيث ان كمية
معلومة من هذه الحروف والارقام يمكن استعمالها في طبع جملة كتب بالتوالي
لانه عند انتهاء كل صحيفة أو كل كتاب يمكن فك الحروف وتركيبها بصفة
أخرى لطبع صحيفة أو كتاب ثان .

فهذه هي مطبعة الحروف أو المطبعة بدون وصف آخر .

وفي العهد نفسه تم اختراع مكبس الطباعة وبهذين الاختراعين تم هذا الفن وانتظم ووجدت بذلك فكرة الانسان قوة عظيمة يمكن بها الانتشار بكيفية لم تكن في الحسبان

ولكن لاي انسان في العالم يمكننا أن ننسب شرف هذا الاختراع العجيب الذي أفاد العالم فائدة عظيمة ؟

بحث العلماء كثيرا في هذه المسئلة وبعد كل عناء ونصب لم يتمكنوا من الجواب على هذا السؤال بصفة قطعية لا يشوبها أدنى ريب ولا يتخللها أي شك ولنتظر الآن مع مراعاة الاختصار الي أقوالهم في هذا الموضوع فنقول كثرت الابحاث وتشعبت الروايات حتى ان خمس عشرة مدينة تدعي كل واحدة منهن بأنها كانت المهد الذي نشأ فيه فن الطباعة ولاعجب في ذلك فالاختراع جليل وكل واحدة منهن تحب أن يكون لها الفخر والسودد بنسبة اختراعه لها

ومما نذكره على سبيل الفكاهة في هذا الباب هو أن أحد علماء (ماينس) المدعو « بودمات » اتهمه أهل بلده بأنه قد أهمل في واجباته لانه لم يكتشف مستندات جديدة تثبت أن مخترع فن الطباعة هو جوتنبرج المولود في هذه المدينة فما كان من هذا العالم الا انه زور مستندات من عنده تؤيد دعوي ان جوتنبرج هو أول مخترع لهذا الفن وقد اغتر بها كثير من المؤرخين وذلك يثبت للقراء ماهي درجة اجتهاد العلماء في معرفة أصل نشأة الطباعة ومن هو مخترعها الحقيقي

وللوصول الى هذه الغاية قد سلكوا طريقين أولهما أساسه الاعتماد على شهادة

المعاصرين للاختراع أو المؤرخين المشهور عنهم صحة الاسناد والطريق الثاني أساسه فحص الكتب التي طبعت في أول اختراع المطابع لمعرفة طابعها وتاريخ طبعها ومن المعلوم أن هذا الطريق الأخير لا يوصل بسرعة إلى نتيجة قاطعة لأنه صعب المسلك لاسيما وإن أصحاب المطابع في تلك الأعصر الحالية كانوا يجتهدون في إعطاء الكتب التي يطبعونها شكل كتب النسخ لأن الأهالي كانوا يأنفونها وكانوا يقولون على المطابع إنهم من آلات السحر ولذلك كانوا لا يكتبون عليها أسماءهم ولا تاريخ الطبع ولا البلد التي طبع فيها الكتاب كما يفعلون الآن

والابحاث العلمية لغاية اليوم قد وصلت إلى جملة روايات ضعيفة وبقى النزاع قائما بين (جوتنبرج) من « ماينس » وبين (جان كوستير) من « هارليم » بهولاندا ولا بأس بالاثبات على شيء من تاريخ حياتهما .
 أما جوتنبرج فولد في ماينس سنة ١٤٠٠ م تقريبا وفي سنة ١٤٢٠ حصلت ثورة في بلده فاضطر أن يهاجر منها إلى مدينة ستراسبورغ وفي سنة ١٤٣٩ دافع عن نفسه في قضية لها أهمية كبرى بالنسبة لتاريخه لأن التفاصيل الموجودة فيها قد وصلت إلينا وهي أهم المعلومات التي يمكن الرجوع إليها . وموضوعها أن جوتنبرج كان عقد شركة مع ثلاثة أشخاص آخرين لأجل استغلال بعض الطرق والأعمال السرية فلما مات أحد الشركاء المدعو (اندريه وريتزن) أراد ورثته أن يملوا محله في الشركة فأبى عليهم جوتنبرج ذلك فرفعوا قضية ضده وطلبوا فيها أما دخولهم في الشركة أو استرداد ما دفعه مورثهم وقد رفضت المحكمة دعواهم بعد أن سمعت شهودا عديدين محفوظا شهاداتهم اليوم .

والذي يؤخذ من مجموع هذه الشهادات هو ان المكبس كان معروفا عند جوتنبرج وان الحروف المتفرقة كانت معروفة عنده أيضاً ولكن يظهر ان هذه الشركة لم تنتج شيئاً اذ لغاية الآن لم يقف العلماء على كتاب تم طبعه في مدينة ستراسبورغ

ثم انتقل جوتنبرج الي (ماينس) وفي سنة ١٤٥٠ عقد شركة مع أحد المالين المدعوفوست ليتسني له ان يستمر في عمله وكان المالى يعطيه النقود بسعر ٦/ وفي سنة ١٤٥٥ لم يمكنه دفع الذي عليه فرفع عليه فوست قضية واكتسبها وأخذ جميع المدد والآلات التي عنده نظير استحقاقه

ولكن هذه الحسائر العظمى لم تقعد همة جوتنبرج عن السعي وراء تحسين اختراعه فانه استمر على العمل بمساعدة أحد أقربائه ثم عقد شركة مع الدكتور { كوزاد هو مري } ومشهور أنه كان يطبع في سنة ١٤٥٩ ثلاثمائة فرخ من الورق كل يوم ومع ذلك فكان الفقر دائماً واضعاً حاله في منزله غير انه كان بالرغم عن هذا معتبراً بين قومه ومحترماً عند الجميع ومات في ماينس في فبراير سنة ١٤٦٨

أما جان كوستير فجميع ما يتعلق به وارد في كتاب اسمه (بلافا) تأليف { أريان دي جونج } في سنة ١٥٦٥ وقد طبع هذا الكتاب بعد موت مؤلفه سنة ١٥٨٨ في مدينة (ليد) بهولاندا وأما مؤلفه فمات في ١٠ يونيو سنة ١٥٧٥ وقد جاء فيه ما يأتي وان المخترع لفن الطباعة هو جان كوستير من مدينة هارليم وذلك انه كان ينزه في الغابات المجاورة للبلد يوماً من الايام فخطرت بباله فكرة عظيمة وهي انه أخذ قشوراً من الشجر وصار ينقش عليها حروفاً ثم يطبعها على الورق بجوار بعضها ويكون منها كلمات مشتتة على نصائح لاولاده ثم أراد

أن يعمل عملاً أفيد فاخترع مداداً لزجاً لانه لاحظ أن المداد العادي ينتشر كثيراً على الورق ثم طبع رسومات وكلمات بهذه الوساطة وقد رأيت كتاباً اسمه «مرآة السلام» مطبوعاً بهذه الطريقة على وجه واحد من كل ورقة وأما الوجه الآخر منها فأبيض وملصوق بالصحيفة التي بعدها لعدم ظهور هذا العيب.

وبعد ذلك صنع الحروف من رصاص بدل الخشب ثم من قصدير ليكون أكثر صلابة ومتانة ولما كثر عليه العمل انضم إليه بعض المساعدين الأجانب وكان ذلك سبب الضرر لانه كان بين هؤلاء الأجانب شخص اسمه جان وأظنه جان فوست بعد أن أتقن فن الطباعة اغتتم فرصة اشتغال زملائه في قداس ليلة الميلاد ودخل مخزن الحروف وأخذ منه ما طاب له من الآلات والعدد التي اخترعها استأذنه ثم ذهب ومعه المسروقات إلى مدينة «امستردام» ومنها إلى كولونيا فمدينة ماينس. وفي السنة التالية للسنة التي حصلت فيها السرقة أي سنة ١٤٤٢ ظهرت في ماينس كتب مطبوعة بنفس الحروف التي كان يستعملها كوستير وبذلك نسب بعضهم خطأ شرف اختراع فن الطباعة إلى من لا يستحقونه، اهـ ملخصاً

فإذا سلمنا بجميع ماجاء في هذه الرواية النحس المشكل وكان كوستير هو المخترع لفن الطباعة ولكن قد وجدت هذه الرواية معارضة كثيرين قالوا انه لا يمكن الاخذ بقول كتب بعد موت كوستير بمائة وثمانية وعشرين عاماً ولم يذكر هذا الاسم لأول مرة الا بعد هذا الزمن الطويل وفي ذلك ما يدعو للشك والارتياب وقالوا أيضاً ان جان فوست ما كان يمكنه في الوقت الوجيز وهو مدة تغيب زملائه أن يأخذ كل العدد

والحروف التي يتمكن بواسطتها أن ينشيء مطبعة فضلا عن أنه لا توجد سيرة
لهذه السرقة المهمة في المحفوظات القضائية والذي يؤخذ من كتاب أدریان
ان اختراعات كوستير حصلت ما بين سنتي ١٤٢٦ و ١٤٤٠

هذا وقد اكتشف في سنة ١٧٩٠ بمدينة أفينيون من اعمال فرنسا
عقود يؤخذ منها ان صائغاً من مدينة { پراج } أتى هذه المدينة في سنة
١٤٤٤ وعلم أحد الاسرائيليين المدعو « دافين » علم الطباعة وقد زاد هذا
الاكتشاف هذه المسئلة اشكالا على اشكال وتعقيدا على تعقيد

وقبل الحكم في هذه القضية يجب علينا أن نراجع الشهادات التاريخية
والحق يقال انها في الغالب تدل على ان اختراع فن الطباعة قد بدى في بلاد
هولاندا فان تاريخ كولونيا المطبوع في سنة ١٤٩٩ مذکور فيه أن هذا الفن
نشأ هناك والى هذا الرأي أيضاً ذهب المؤلف « ماريا انجلو » و « جان فان
زويرن » و « كورنهيتر » وغيرهم من المؤلفين الذين لا حاجة لذكر أسمائهم
وتوجد شهادات أيضاً في صالح جوتنبرج منها شهادة { شيفر } في سنة
١٤٦٨ الذي يقول بأن أول من طبع هو جوتنبرج وفوست ثم شهادة ألوي
چيرنج وباقي أصحاب مطابع باريس في سنة ١٤٧٢ وكذلك شهادة « بالميروس »
وشهادة شيفر في كتاب قدمه للامبراطور مكميلان في سنة ١٥٠٥ قال فيه
ان فن الطباعة اخترعه جوتنبرج في باريس سنة ١٤٥٠

وقد كثرت الشهادات في صالح جوتنبرج في القرن السادس عشر وما
بعده ولكن لا حاجة لذكرها لانها جاءت متأخرة

قلنا فيما سبق انه لا جمل الوصول الى معرفة مخترع فن الطبع قد أتبع
العلماء طريقتين احدهما هي الرجوع الى الشهادات التاريخية والاخرى مراجعة